

# من تاريخ الطب الاسلامي

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غني

— غير لإيران بمصر —

— ٥ —

—————

يقول ابن سينا في المقدمة المذكورة :

« وبعد » فقد نزلت المهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو ألف ، ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما ألفه متململو كتب اليونانيين إلخاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب ألفتها للعلماء من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم ينزل رحمته سواهم ، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم ( يعني أرسطو ) في تنبيهه لنا نام عنه ذؤوده واستاذؤه ، وفي تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفي ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفي إدراكه الحق في كثير من الأشياء ، وفي تفتننه لأسرار صحيحة سرية في أكثر العلوم وفي إطلاعه الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده ، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يديه إلى تمييز مخلوط وتهديب مفسد وبحق على من بعده أن يلوموا شتمه ويرموا ثلماً يجدونه فيما بناه ويفرغوا أصولاً أعطاهها فاقدر من بعده على أن يفرغ نفسه عن عهدة ما ورثه منه وذهب عمره في تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما قرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلة يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع الفتور إلى ما زيد عليه أو إصلاح له أو تنقيح إياه .

وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم وكان الزمان الذي اشتغلنا فيه بذلك زمان الحدأة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفتن لما أورثوه . ثم قابلنا جميع ذلك بالخط من العلم الذي يسميه اليونانيون ( المنطق ) — ولا يبعد أن يكون له عند الشرقيين اسم غيره — حرفاً حرفاً فوقتنا على ما تقابل وهل ما عصى ، وطلبنا لكل شيء وجهة حق ما حق وزاف ما زاف .

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتناء إلى ( المشائين ) من اليونانيين كرهنا شق المصا ومخالفة الجمهور فأنحزنا إليهم وتمصبنا للمشائين إذ كانوا أولى فرفعهم بالتعصب لهم — وأكلنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يلبثوا أربعم منه وأغضبنا عما تحبطوا فيه ، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ونحن بدخاته شاعرون وعلى ظله واقفون . فإن جاهرنا بمخالفتهم في الشيء الذي لم يكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية الخفايا . فن جلة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة بحيث لا يشكون فيه ويشكون في النهار الواضح . وبهذه قد كان من الدقة بحيث تمش عنه عيون هؤلاء الذين في العصر — فقد بلينا برقة منهم عارى الفهم كأنهم خشب مسندة يرون التعمق في النظر بدعة ، ومخالفة المشهور ضلالة كأنهم الحيايلة في كتب الحديث لو وجدنا منهم رشيداً أبتغناه بما حققناه — فكنا ننفهمهم به ، وربما تسنى لهم الإيقال في مناه فموضوعنا منفعة استبدوا بالتنفير عنها .

ومن جملة ما ضننا بإعلاننا عابرين عليه — حق مغفول عنه يشار إليه فلا يتلقى إلا بالتعصب . فلذلك جريتنا في كثير مما نحن خبراء ببجدهم مجرى المساعدة دون الحاققة . ولو كان ما انكشف لنا أول ما انصبتنا إلى هذا الشأن لم نبد فيه مراجعات منا لأنفسنا ومعايدات من نظرنا — لما تبيتنا فيه رأياً ولا خلط علينا الرأي وسرى في عقائدنا الشك ، وقتلنا لعل وعسى . لكنكم أصحابنا تملون حالنا في أول أمرنا وآخره وطول السدة التي بين حكمتنا الأول والثاني ، وإذا وجدنا صورتنا هذه فبالحرى أن نشق بأكثر ما قضينا وحكمتنا به واستدر كناه ، ولا سيما في الأشياء التي هي الأغراض الكبرى والثابتات القصوى التي اعتبرناها وتعتبناها مئين من المرات . ولا كانت الصورة هذه والقضية على هذه الجلة ، أحييتنا أن نجمع كتاباً يحتوي على أمهات العلم الحق الذي استنبهه من نظر كثيراً وفكر ملياً ، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً واجتهد في التعصب لكثير فيما يخالفه الحق فوجد لتعصبه وما يقوله وفاقاً عند الجماعة غير نفسه ، ولا أحق بالإسقاء إليه من التعصب لطائفة إذا أخذ يصدق عليهم فإنه لا ينجم من السيوب إلا الصدق .

وما جئنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا — أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا — وأما العامة من مزارى هذا الشأن

فقد أعطيتهم في (كتاب الشفاء) ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم ،  
وسنمطيهم وفي الأرواح ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه ، وعلى  
كل حال فلا استمانه بالله وحده .

ويظهر لنا من هذه المقدمة الفرق الشاسع بين المترجمين  
ومتتبي فلسفة اليونان الذين كانوا يتلقون آراء فلاسفة اليونان  
في جميع الأحوال بأحسن قبول ويعتبرون عقولهم منتهى ما يصل  
إليه العقل ، وبين الحكماء أصحاب الرأي والنظر من المتأخرين  
أمثال ابن سينا ممن لم يكونوا يرون في عقول فلاسفة اليونان  
أقصى ما يبلغه العقل البشري ولم يكونوا يتقبلون آراءهم كحقائق  
لا تقبل الشك والجدل .

كان يرى الشيخ الرئيس أن فلسفة أرسطو تعتبر كاملة  
لزمان أرسطو وحسب ، وأن للأجيال القادمة أن تبدى فيها رأيا  
تنقدها وتصحح ما تراه فيها من الخطأ كما كانت نظرة الرازي  
لأراء جالينوس في الطب .

وهناك أمر آخر أرى من المناسب أن أشير إليه وهو أن ابن  
سينا لم يقتصر في كتابه (الشفاء) وهو عن فلسفة المشائين -  
على نقل ما وصله من أقوال أرسطو عن طريق التراجم بل أنه  
(أي كتاب الشفاء) هو حاصل ما فهمه هو نفسه من فلسفة أرسطو  
انصل أبو عبيد الجوزجاني تلميذ الشيخ وصاحبه وجامع  
أكثر كتبه بابن سينا في جرجان وصاحبه حتى آخر أيام  
حياته أي ما يقارب خمسة وعشرين عاماً ولازمه في كل حال وكل  
مكان لم ينفك عنه في سفر أو حضر ، وكان الراوي الثقة الذي  
نقل إلينا تاريخ حياة الشيخ .

يقول أبو عبيد هذا في شرح أحوال الشيخ : « ثم  
سألته أنا شرح كتب أرسطو طالعاً فذكر أنه لا فراغ له إلى  
ذلك الوقت ، وقال ولكن إن رضيت متى بتصنيف كتاب أورد  
فيه ما صح عندي من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين ولا  
اشتغال بالرد عليهم ، فقلت ذلك ، فرضيت به .

وكان بمد محمد بن زكريا الرازي وقبل زمن الشيخ الرئيس  
ابن سينا طبيب آخر وهو علي بن العباس الجومسي الأهوازي ،  
وكان تلميذاً لأبي ناهر موسى بن سيار الجومسي وله كتاب جامع  
في الطب اسمه ( كامل الصناعة الطبية ) ألفه وقدمه لمضد الدولة  
الدبلي الملقب بشاهنشاه أو ملك الملوك . وكان طبيبه الخاص

ومن هنا سمي الكتاب بالملكي .

ينقد علي بن العباس في مقدمة مؤلفه هذا - وهو من  
الآثار الخالدة في الطب الإسلامي ، جميع الأطباء الكبار الذين  
سبقوه .

تراه يقول في المقدمة المذكورة :

فأما أبقراط الذي كان أمام هذه الصناعة وأول من دونها في  
الكتب فقد وضع كتباً كثيرة في كل نوع من أنواع هذا  
العلم ، منها كتاب واحد جامع لكثير مما يحتاج إليه طالب هذه  
الصناعة ضرورة ، وهذا الكتاب هو كتاب الفصول ، وقد يسهل  
جمع هذه الكتب حتى نصير كتاباً واحداً حاوياً لجميع ما قد  
يحتاج إليه في بلوغ غاية هذه الصناعة ، إلا أنه استعمل فيه كسائر  
كتبه الإيجاز حتى صارت معان كثيرة من كلامه غامضة يحتاج  
القارى لها إلى تفسير ، وأما جالينوس المقدم الفضل في هذه الصناعة  
فإنه وضع كتباً كل واحد منها مفرد في نوع من أنواع هذا  
العلم وطول الكلام فيه وكرره لما احتاج إليه من الاستقصاء في  
الشرح وإقامة البراهين والرد على من عاند الحق وسلك سبيل  
الغالطين ، ولم أجد له كتاباً واحداً يصف فيه ما يحتاج إليه في  
درك هذه الصناعة وبلوغ الغرض المقصود إليه منها للسبب الذي  
ذكرته آنفاً .

وقد وضع أورنباسيوس كتباً وكذلك فولس الأجنطي  
ورام كل واحد منهما أن يبين في كتابه جميع ما يحتاج إليه ،  
فوجدت أورنباسيوس قد قصر في كتابه الصغير الذي وضعه  
لابنه (أوناقس) وإلى عوام الناس ، فلم يذكر في الكتاب  
الذي وضعه لابنه (اسطاط) في تسع مقالات فإنه لم يذكر فيه  
شيئاً من الأمور الطبيعية التي هي الاستقصات من الأمزجة  
والأخلاق والأعضاء والقوى والأفعال والأرواح إلا اليسير ،  
ولم يذكر في هذين الكتابين شيئاً من العمل باليد ؛ فأما كتابه  
الكبير الذي وضعه في سبعين مقالة فلم أجد فيه إلا مقالة واحدة  
فيها ذكر تشريح الأعضاء . وأما فولس فلم يذكر في كتابه من  
الأمور الطبيعية إلا اليسير . وأما أمر الأسباب والعلاقات وسائر  
أنواع المداواة والملاج باليد فقد بالغ في بيانه ؛ إلا أنه لم يذكر  
ما ذكره في كتابه على طريق من طرق التعليم . وأما المحدثون فلم  
أجد لأحد منهم كتاباً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه في مداواة

بهذا الكتاب، وكذلك لكثرة تجريده التكاليف من التعظيم، وإما أن ينفع الناس به ويكون له ذكر حسن من بعده، فطلق جميع ما ذكره فيه تطبيقاً ليمود فيه فينظمه ويرتبه ويضيف كل نوع منه إلى ما يشاكله ويثبت في بابه على ما يليق بمعرفة هذه الصناعة فيكون الكتاب بذلك كاملاً تماماً فمما قد عرفت ذلك عوائق وجاء الموت قبل إتمامه؛ فإن كان إنما قصد به هذا الباب فقد طول فيه الكلام وعظمه من غير حاجة اضطرارية دعت إلى ذلك حتى قد عجز أكثر العلماء عن نسخه وانتناؤه إلا اليسير من ذوى اليسار من أهل الأدب قتل وجوده، وذلك أنه ذكر في صفة كل واحد من الأمراض وأسبابه وعلاقاته ومداراته ما قاله كل واحد من الأطباء القدماء والحديثين في ذلك المرض من أبقراط وجالينوس إلى إسحق بن حنين ومن كان بينهما من الأطباء القدماء والحديثين ولم يترك شيئاً مما ذكر كل واحد منهم من ذلك إلا أورده في هذا الكتاب وعلى هذا القياس فقد صارت جميع كتب الطب معصورة في كتابه هذا.

وأما أنا فإني أذكر في كتابي هذا جميع ما يحتاج إليه في حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل وطبائنها وأسبابها والأعراض التابعة لها والملاحظات الدالة عليها مما يستغنى الطبيب الماهر عن معرفته إلى أن يقول (وأنا عملت لك مثالا للطريق الذي أسلكه في كتابي هذا من صفة الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداراتها وأجل ذلك في ذات الجنب).

(ينج)

الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها وما سوى ذلك فذكره على جهة الإيجاز من غير شرح واضح؛ ومع ذلك فإن ترجمته ترجمة سوء رديئة تصحى على القارى له كثيراً من المانى التي قصد إلى شرحها ولا سيما من لم ينظر في ترجمة حنين وأشباهه. وأما يوحنا بن سرايون فإنه وضع كتاباً يذكر فيه شيئاً سوى مداواة العلال والأمراض التي تكون بالأدوية والتدبير ولم يذكر العلاج الذي يكون باليد، وترك أشياء كثيرة من العلال ولم يذكرها من ذلك أنه ترك من علل الدماغ ذكر العلال المعروفة بالقطرب والمشق والاسترخاء الحادث عن القولنج ولم يذكر في علاج العين مداواة التنوء على ما ينبنى ولم يذكر علاج السرطان في العين وغير ذلك من علل الأجفان.

وأما مسيح فإنه وضع كتاباً نحو فيه الفجر الذى نجاه هرون في قلة شرح الأمور الطبيعية والأمور التي ليست بطبيعية مع سوء ترتيبه لما وضعه في كتابه من العلم وقلة معرفته بتصنيف الكتب.

وأما محمد بن زكريا الرازى فإنه وضع كتابه المعروف بالنصورى وذكر فيه جملاً وجوامع من صناعة الطب ولم يغفل عن ذكر شيء مما يحتاج إليه، إلا أنه لم يستقص شرح ما ذكره لكنه استعمل فيه الإيجاز والاختصار وهذا كان غرضه وقصد فيه؛ فأما كتابه المعروف بالهاوى فوجدته قد ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه المتطببون من حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل التي تكون بالتدبير بالأدوية والأغذية وعلاماتها، ولم يغفل عن ذكر شيء مما يحتاج إليه الطالب لهذه الصناعة من تدبير الأمراض والعلل؛ غير أنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية كعلم الاستقصات والأمزجة والأخلاط ونشرح الأعضاء ولا العلاج باليد ولا ذكر ما ذكره من ذلك على ترتيب ونظام ولا على وجه من وجوه التعاليم ولا جزاءه بالمقالات والفصول والأبواب، والذي يقع على من أمره وأتوهمه على ما يوجب القياس من علمه ومعرفته لصناعة الطب وتصنيف الكتب وفهمه في هذا الكتاب إحدى الحالتين: إما أن يكون وضعه وذكر فيه ما ذكر من جميع علم الطب ليكون تذكيراً له خاصة يرجع إليه فيما يحتاج من حفظ الصحة ومداواة الأمراض عند الشيوخوخة ووقت الهرم أو النسيان أو خوفاً من آفة ترضى لكتبه فيعتاض منها

نشر بالمدد الماضى إعلان ٩٤٨٦

وزارة المعارف العمومية - إعلان

مسابقة الثقافة العامة لسنة ١٩٤٨

١٩٤٩

الفقرة رقم ٦ - بحوادث أدبية

وفنية وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية

١٠٠ ج والصواب بحوث أدبية وفنية

وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج